

إستراتيجية العنوان في المدونة العربية
"نماذج مختارة من الأدب القديم والحديث"

أ.فريد حليمي

المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة

الملخص :

ترمي هذه الدراسة للبحث في إستراتيجية العنوان في المدونة العربية من خلال نماذج مختارة من الأدب القديم وأخرى من الأدب الحديث رصدًا لمختلف التخصصات من بلاغة، ومنطق، وعلم الكتابة، وبحثًا في مختلف الدلالات الحافة بهذا المصطلح الذي بات علما قائما بذاته في ظل الدراسات الحديثة اللسانية، والسيمائية خاصة.

Abstract :

This study aimed to look at the strategy Title in the Arab code through Models of ancient literature and Modern monitoriy its uses in various disciplines literature and research in Semantic edge this term which has become note Freestanding modernist in linguistics and Semiotics private Studies .

تمهيد:

عرف الدرس النقدي الحديث ، والمعاصر توجّها استمدّه من تحوّل مفهوم النص في الدراسات المابعد بنيوية وذلك باستثمار معطيات الدرس اللساني ، والسميائي حيث أصبح النص أكبر من أن تحكمه علاقات داخلية تجعل الممارسة جَوّانية فقط ؛ فقط انفتح النص على مجموعة من علاقات تربطه بنصوص أخرى سمّاها " جيار جينيت " Gérard Genette " بالمتعاليات النصية "Ttranstextualité" ومن هذه المتعاليات التي تمثل علاقات النص في أوسع مجالاتها" النصوص الموازية " "Para texte" أو " العتبات النصية " " Seuil " وهي مجموعة نصوص تحيط بالنص المتن ، وتصاحبه ، ومن هذه النصوص العنوان ؛ هذا الذي ارتبط بعلم سمي باسمه ؛ إنه " علم العنوان " أو " La Titrologie " ، وتعود الريادة في هذا العلم للناقد الفرنسي " ليو هويك " Leo Hoek " ، فالعنوان بذلك علامة لسانية ، وشفرة أدبية تدخل في علاقات جدلية ، وتكاملية مع النص المتن ، ومع السياق .

إنه علم له أدواته ، وميكانيزماته التي تصبغه بالصبغة العلمية ، وهو درس نقدي غربي حداثي ، لكن العنوان كاستعمال ارتبط بظهور الكتاب ، وهذا مبثوث في الثقافة العربية ، ومن هنا تأتي إشكالية هذا البحث التي تسعى لرصد هذه الظاهرة في الثقافة العربية ، انطلاقا من المصطلح ، ودلالاته ، مروراً إلى العنوان في المدونة العربية عموماً والرواية خصوصاً.

I – المصطلح في الثقافة العربية:

- تعدّ ظاهرة العنوان عادة قديمة تضرب بجذورها في عمق الثقافة الإنسانية ، فالعنوان رهين بميلاد الإبداع لهذا كان الاهتمام بالمصطلح مبثوثاً في ثنايا و بطون الأسفار العربية
- ورد في لسان العرب « العُنْوَانُ و العِنْوَانُ سمة الكتاب، و عُنُونُهُ عُنُونَةٌ، و عِنُونَا و عَنَاهُ كلاهما وسمه بالعنوان ... و العِنيان سمة الكتاب و قد عَنَاه و أعناه، و عُنُونْتُ الكتاب و عُلُونْتُه »¹
 - وجاء في "محيط المحيط" « أعنّ الكتاب لكذا عرضه له و صرفه إليه، عُنُونُ الكتاب عُنُونَةٌ كتب عُنُونُهُ و عُنُونُ الكتاب و عُنُونُهُ و عُنْيَانُهُ و عُنْيَانُهُ سمة و ديباجته سمي به لأنه يعنّ له من ناحيته و أصله عُنَان و كل ما استدلت بشيء يُظهِرُك على غيره، وما يدلّك ظاهره على باطنه فعُنُونٌ له. يقال الظاهر عُنُونٌ الباطن »²

وقال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي في أدب الكتاب « العنوان العلامة كأنك علمته حتى عرف بذكر من كتبه و من كتب إليه، قال حسان بن ثابت — رضي الله عنه —

1- ابن منظور : لسان العرب ، م 15، دار صادر- بيروت- ط 1، 1992 ، ص 106

2 - بطرس البستاني : محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ط ج ، 1987 ، ص ص 639 ، 640

صُحُّوا بأشْمَطَ عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا و قرآنا

وأنَّ المأمون قال لرجل رآه في موكبه و كان جسيما، ما هذه الجسامة؟ قال «عُنوان نعمة الله و نعمتك يا أمير المؤمنين»¹

كما تطرَّق الصولي لجمالية العنوان حيث اشترط أن يُعْظَم الخط ، و يُفَخَّم في كتابة العنوان ، أو الأسماء التي تكون على ظهر المرسل «فهو أبهى للخط و أفسح للشكل»²

و إن كان الصولي مثلما يرى " محمد بلاجي " يتحدث عن الكتاب المرسل من شخص لآخر فيمكن تعميم الدلالات على عناوين الكتب، و منه استطاع "محمد بلاجي" أن يستخلص ماهية العنوان من خلال مذهب "الصولي" حيث يرى³

- العنوان: هو الإعلان + العلامة
- منه تعرف المرسل و المرسل إليه (الباث و المتلقي)
- جمالية العنوان: تعظيم الخط وتلطيفه حسب المقام
- تداولية العنوان: بهاء الخط.

إنَّ نص "الصولي" رغم قدمه استطاع اختراق الزمن و التأصيل لعلم العنوان فيما بعد هذا الذي استقر و رسا في فرنسا مع نهاية الستينيات، لكن نص "الصولي" يفتقر للمنهجية الواعية بالمصطلح و بأدواته الإجرائية حال الكثير من المناهج الغربية التي وجدت مبثوثة في الثقافة العربية القديمة.

فهذا النص يشير إلى علاقة العنوان بالمتن ، و وظائف العنوان كما الاهتمام بالفضاء الطباعي فالعلاقة الأولى تظهر في اعتبار العنوان علامة تعلن عن جنسها ،أو عن مسماها فتميزه و تختزل مضمونه و في المقام نفسه تظهر الدلالة الثانية أي وظائف العنوان فالإعلان يوحى بالإشهار و التعيين خاصة في معرفة المرسل والمرسل إليه، أما الفضاء الطباعي و مكانية العنوان فتظهر في معرض حديثه عن جمالية العنوان من تعظيم الخط و تلطيفه حسب

1 - أبو بكر محمد بن يحيى الصولي : أدب الكتاب، المكتبة الغربية - بغداد - المطبعة السلفية - مصر - القاهرة. 1341 ، 143

2- المرجع نفسه : ص 145

3 - محمد بلاجي: توظيف العناوين في تأليف المصنفات، المبادئ و الأهداف، ندوة الأدب القديم أية قراءة؟ جامعة الحسن

الثاني، عين الشق، الأدب و العلوم الإنسانية - الدار البيضاء- 12- 13- 14 شباط ، 1993 ، ص 125

المقام، و تظهر أيضا في تداولية العنوان، فكل هذه القضايا طرحت مع ميلاد علم العنونة « La Titrologie »

I - الدلالات الحافة بالمصطلح:

استطاع العنوان كمصطلح اكتساب معاني عديدة استقفاها من توظيف مختلف الاختصاصات له، حيث نجد الكتاب و اللغويين، و البلاغيين ، و العلماء و المناطقة كلٌ تطرق للمصطلح بحسب توجهاته و ميادين بحثه ، مما جعل هذا كله ميزة و سمة فارقة للعنوان.

ف"ابن منظور" باعتباره لغويا كان العنوان في عرفه ظاهرا يكشف عن باطن و "الصولي" باعتباره كاتباً كان العنوان في عرفه علامة و إعلان¹

أما العنوان في عرف البلغاء مثلما يرى "بطرس البستاني" « أن يأخذ المتكلم في غرض لقصد تكميله و تأكيده بأمثلة في ألفاظ تكون عنواناً لأخبار متقدمة و قصص سالفه »²

و في عرف العلماء «أن يذكر في الكلام ألفاظا تكون مفاتيح لعلوم و مداخل لها »³

أما في عرف المناطقة فهو « مفهوم الموضوع ، و يسمى وصف الموضوع و صفا عنوانيا »⁴ و منه نستنتج المعاني التالية:

- عند اللغويين: ظاهر يكشف عن باطن
- عند الكتاب: علامة و إعلان
- عند البلاغيين: تلخيص للتأكيد و التكميل و التعزيز
- عند العلماء: ألفاظ تكون مفاتيح للعلوم
- عند المناطقة: هو مفهوم الموضوع أو وصف الموضوع

إن المتأمل في هذه الدلالات يجدها مستوحاة من خاصية كل تخصص ، و يستنتج أنّ العنوان كالعامل المطواع في خدمة كل من يلوذ إليه، و أنه مادة مرنة كالزئبق تتكيف مع كل إناء يعوزها لذلك نجد الباحثين على تباين ميادين بحثهم يوظفونه بحسب مطلبهم.

فاللغوي يرى العنوان "ظاهرا يكشف عن الباطن" ، و هذا يحيلنا لطبيعة اللغوي الذي يبحث في اللفظ الذي يكبله السياق.

1 - المرجع السابق : ص 126

2 - بطرس البستاني : محيط المحيط ، ص 640

3 - المرجع نفسه : الصفحة نفسها

4 - المرجع السابق : الصفحة نفسها

أما الكاتب فالعنوان عنده يوحي بوجود خطاب ،أو ملفوظ يستدعي مراعاة الباث و المتلقي أو المرسل و المرسل
فالعنوان عندهم - الكتاب - رسالة

أما "البلاغي" فيركز على مدى دلالة المختزل- العنوان- في المتن أي إنه « يمدنا بزاوية ثمين لتفكيك النص
ودراسته»¹

فالعنوان يحمل دالا و مدلولاً و من هنا يمكن أن يُسحب على العنوان تعريف "همسليف" للكلمة حيث يقول إنها
« مجموع العلاقات التي تدخل فيها »² و عليه فمعنى العنوان رهين بمعنى النص أو المتن خاصة و البلاغي عريف
بالتلاعب بالألفاظ و طريقة إلباسها حلية من الخيال، أين يشتغل على الاستعارة و غيرها فيظهر ما يسمى
ب"العنوان الرمزي" "غير المباشر"، فيصبح بمثابة شفرة أدبية فلا يؤخذ اللفظ بظاهره بل التأويل دليله و النص
سبيله. لهذا نجد البلاغي يوظف العنوان على أنه تلخيص للتأكيد و التكميل و التعزيز.

يسعى العالم الذي يشتغل في ميدان سمته الدقة و المباشرة لأن يكون العنوان دالا مباشرا ناقلا حرفيا بعيدا عن كل
شعرية أو رمزية ،و لمثل ذلك نجد رجل المنطق ،و عليه يجب أن يكون العنوان « جامعا مانعا و لهذا السبب نجد
بعض الباحثين يأخذون على العنوان اعتباطيته و يعدّون ذلك نقيصة فيه »³ ، فالعالم و رجل المنطق لا يختلفان
فكلاهما يوظف العنوان كدال مباشر على متنيهما ، فهما يحتاجان العنوان كمفتاح للدخول في عوالم النص
أو كواصف للنص، فيبعدان الخيال والعاطفة في عنونة مؤلفاتهما.

ومن خلال رصدنا لمصطلح العنوان في المعاجم ،و لدى مختلف الباحثين نجده كما يرى محمد فكري الجزار
"يتأرجح بين مادتي "عنا" و "عنن". و لكلا المادتين دلالات حافة بالمصطلح.

ف"عنا" تحمل معنى "القصد" و"الإرادة" و "عنن" تحمل معاني "الظهور"⁴

ومنه فمصطلح العنوان يغني بزخم دلالي موح بمكانة هذا النص القائم بذاته، ويفسح المجال واسعا للاشتغال عليه.
إنّ هذه الدلالات الملتقّة حول المصطلح مُستثمرة، وليست إضافية مهمشة فحين نقول "أعني كذا" فأنا أقصد
و مادمت أقصده فأنا أريد ، وعليه فمعنى "القصد" مبثوث في معنى الإرادة ومكمل له، وهذه سمة العنوان

1 - محمد مفتاح: دينامية النص (تنظير و انجاز)، المركز الثقافي العربي، ط3، سنة 2006 ، ص 72

2- محمد مرتاض : في عالم النص والقراءة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية ، بن عكنون - الجزائر - سنة 2007 ،
ص81

3- محمد بلاجي : توظيف العناوين في تأليف المصنفات ، ص 129

4 - محمد فكري الجزار : العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1998 ، ص 20

«فإنّه بالنظر لخصوصيته ووظيفته ذو وضعية أكثر تعقيدا. إذ إنه يتوجه إلى "المستقبل" حاملا مرسلته في دلالته وهذا الحمل - تحديدا- هو قصد المرسل، وإرادته إبلاغ المستقبل بجماع المرسلّة إن على مستوى "الجنس" أو مستوى "الموضوع" أو حتى على مستوى موقف المرسلّة من خطابها الذي تتأسّس داخله»¹

تقوم إستراتيجية العنوان إذن في أي عمل أدبي على مقاصد دلالية يسعى الكاتب لتحقيقها ولذلك يشكّل العنوان فاتحة دلالية مهمة في توصيل هذه المقاصد.

أما مادة "عنن" فتختص بالمستقبل عكس "عنا" التي تخص المرسل. فـ "عنن" تدل على "الظهور" و "الاعتراض" و السؤال هنا لمن؟

يظهر العنوان، و يعترض المستقبل، و يكون همزة وصل بين المتن، و المتلقي رغم افتقاره اللغوي. ويتضح مما سبق « أن العنوان باعتباره "الظهور" و "الاعتراض" يحدّد حقل اشتغال المتلقي عليه، كما كان العنوان "القصد والإرادة" تحديدا لحقل اشتغال المرسل وهو - هنا و هناك - علاقة بين خارج غير لغوي و داخل لغوي، وهذه ميزة يمتاز بها أعني عدم قابليته -إطلاقا- للتصورات البنيوية المغلقة، و المجردة، فإذا كان العمل يتمتع بهذه القابلية بالرغم من التحفظات فعلى العكس، العنوان لا سبيل إلى تجريده بنيويا - مادام تحقق إنتاجيته الدلالية هو - في واحد من أظهر معانيه. تلاقي قصد المرسل بمعرفة المستقبل الخلفية على قاعدة لغويته الفقيرة »² و عليه فالعنوان إنتاج مشترك بين المرسل و المتلقي و لا يمكن اعتباره داخل لغوي مغلق، و معنى الإنتاج هنا هو معرفة دلالات العنوان التي يرمز إليها المرسل قصد قدرة المتلقي على فهمها، لأن المرسل لا يمكن أن يقدم عنوانا يتسم بالتعمية و الإلغاز، كما لا يكمن تحليل العنوان بمعزل عن سياسته.

فالعنوان إذن مخاض ناتج عن تلاقي قصد المرسل و قدرة المتلقي على استيعاب هذا القصد، وهذا يحيلنا إلى نظرية منهجية لمقاربة العنوان تؤمن بأن العنوان رغم افتقاره اللغوي لا يقبل التجريد البنيوي أو القراءة الأحادية الفردية.

هذه أهم الدلالات الحافة بمادتي "عنا" و "عنن" منعزلتين، ولكن تلاقي المادتين المعجميتين يحقق دلالة أخرى هي "الوسم و الأثر"، و هي دلالة غاية في الأهمية لاعتبارها جوهر دلالة العنوان، أو باعتبارها تختزل الدلالات الأخرى.

فالعنوان "وسم" لاستقلاله عما يسمه انطولوجيا، و العنوان أثر لعلاقته بالمتن؛ أي وظيفته إزاء المتن³

1 - المرجع نفسه : ص 21

2 - المرجع السابق : ص 22

3 - المرجع نفسه : ص 23

و عليه فالعنوان نص قائم بذاته يرد بشكل صغير لكنه يوحي بدلالات غيبية ،و غامضة على المتلقي استنكاها فهو « دال إشاري و إحالي يكشف الغامض و يعلن قصدية المبدع و مراميه الإيديولوجية »¹

وبهذا نستنتج قيمة العنوان كمصطلح لغوي حافل بالدلالات التي لا تبعده عن علم العنوان

« La Titrologie »

لكن كيف كان يعنون العرب مؤلفاتهم ؟ خاصة و قد وطينا لدلالات المصطلح لدى شتى المشتغلين في حقله.

و هل كل نص كان يعنون ؟

وهل العنوان أشهر من مبدعه ؟

أسئلة كثيرة تطرح نفسها في الثقافة العربية منذ القدم.

III – العنوان في المدونة العربية:

لعل أشهر دراسة للعنوان من حيث نشأته ،و تطوره في الأدب العربي كانت للأستاذ الدكتور "محمد عويس" هذا الذي رصد ظاهرة العنوان في الأدب العربي قبل انتشار التدوين ،و أثناءه ، ثم عصر الطباعة إلى أوائل القرن العشرين، لينتهي عند القرن العشرين. مشغلا على عناوين المقالات الأدبية في النصف الأول منه – القرن العشرين – و عناوين القصائد العربية في الوقت نفسه – النصف الأول من القرن العشرين – و ينهي دراسته بالعنوان في الشعر المعاصر و بعده جعل العناوين الخاصة بقصائد النساء الشواعر محطة خاصة ومتفردة بالدراسة لأنه يرى فيها ميزة أو سمة فارقة حيث يقول « لعل أبرز ما يسم شعر الشواعر أنه تناول مضامين خاصة بالمرأة سواء فيما يخص علاقتها بالرجل أو علاقتها بالأسرة ، ومن ثم علاقتها بالمجتمع و قضايا الوطن (.....)، سيطرة اللمساة النسائية في لغة العنونات بحيث إننا نحس في هذه العنونات بلغة خاصة للمرأة الشاعرة تميزها عن لغة الرجل الشاعر»²

يتسم هذا الرصد التاريخي بالمنهجية و المنطقية؛ لأن تطور العنوان و فق هذه المخطات مبرر و معلل.

فالعنوان قبل عصر التدوين لم يكن واعيا بقدر ما كان تعيينيا فقط، ففي القصيدة كان غير مباشر «فمن النادر أن تحدّد هوية القصيدة بعنوان ، و إن حدث ذلك فإنّ العنوان حينئذ يكون صوتيا – لا دلاليا

1 – المرجع نفسه : الصفحة نفسها

2 – محمد عويس : العنوان في الأدب العربي " النشأة والتطور " مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ط 1 ، سنة 1988 ، ص

— كأن يقال لامية العرب »¹ فالموروث الشعري العربي بداية من العصر الجاهلي حتى العباسي لم يكن يعنون و دليل ذلك أن كبار المحققين أمثال " عبد السلام هارون " و " محمود شاكر " يصنفون القصائد حسب الروي و القافية و المطلع² لذلك يرى " جون كوهين " إمكانية الاستغناء عن العنوان في القصيدة القديمة كونه تعيينيا فقط.

و عندما عرف العرب الطباعة كان دخولها « ذا أثر كبير في تطور عنونة المطبوعات الصادرة عن المطابع العربية »³ حيث أصبح لإخراج الكتاب و صفحة العنوان ، وجماليات النشر دور في تسويق المؤلفات ، و بتحوّل نظرة المبدعين للنص الشعري و التي « لا تكمن في الحدود و المقولات و المفاهيم ، بل في الإيقاع و الرمز و الإيجاء و الانتهاك و المفارقة و الانفتاح على المطلق »⁴ عرف العنوان في العصر الحديث تطورا و ازدهارا حيث أصبحت له قيمة في القصائد ، و صار العنوان غير المباشر إبداعا و تميزا يثير شبق الكتابة و لذة الاكتشاف في عوالم النص ، و كان هذا التطور نتيجة احتكاك العرب بالغرب يقول عبد الله الغدامي إنّ « العناوين في القصيدة العربية ما هي إلا بدعة حديثة أخذ بها شعراؤنا محاكاة لشعراء الغرب — و الرومانسيين منهم خاصة و قد مضى العرف الشعري عندنا لخمس عشرة قرنا أو تزيد دون أن يقلّد القصائد عناويننا »⁵ فنلاحظ أن كلمة "بدعة" لا تحيلنا إلى أن الغدامي لا يؤمن بالعنوان لكنه في هذا المقام لا يؤمن بشعرية العنوان.

لكن اعتبار العنوان " نصا موازيا " فهذا مذهب لا غبار عليه ، ولا يمكن لناقد فذ مثل "الغدامي" أن يجهل قيمة النصوص الموازية، و قيمة التأويل في فك شفرات العناوين غير المباشرة، بل إنه في كتابه " الخطيئة و التكفير " يشتغل على عنوان "يا قلب مت ظمأ " للشاعر " حمزة شحاتة "، ويقرّر من خلال دراسته بضرورة الوقوف على عتبة العنوان و اعتبارها بوابة للنص⁶.

1 - تأليف مع من الأساتذة : سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين لعبد الله حمادي ، منشورات إتحاد الكتاب العرب

الجزائريين ، دار هومة ، ط 1 ، 2002 ، ص 310

2 - المرجع نفسه : ص 308

3 - محمد عويس : العنوان في الأدب العربي ، ص ص 236 ، 237

4 - الطيب بودريالة : قراءة في سيمياء العنوان لبسام قطوس ، الملتقى الوطني الثاني " السيمياء و النص الأدبي " جامعة محمد

خضير — بـسكرة- كلية الآداب و العلوم الاجتماعية ، قسم الأدب العربي 15-16 أفريل ، 2002 ، ص 24

5 - عبد الله الغدامي : الخطيئة والتكفير " من البنيوية إلى التشريحية " نظرية وتطبيق ، المركز الثقافي العربي — المغرب - ط 6 ،

2006 ص 235

6- المرجع السابق : ص ص 236 ، 237

ومن مظاهر هذا الاحتكاك؛ استقرار الوحدة العضوية في القصيدة الشعرية « إذ العنوان أصبح لبنة من لبنات الوحدة العضوية للقصيدة، يتأثر بها، و يؤثر فيها »¹

مما أعطى العنوان قدرة على اختزال المتن لأن الموضوع واحد، أين ذهب الشعراء يتنافسون في تسمية مدوناتهم كل حسب مذهبه الأدبي من رمزية ورومانسية و غيرها ناهيك عن ازدهار الدراسات العلمية في العلوم الإنسانية و في الأدب ، و فنونه ، و نقده بخاصة ، كما كان لحركة التعريب دور كبير في تطور العنونة في القصائد لأن العنوان في القصيدة الغربية كان محل اهتمام منذ نشأتها²

فكل هذه و غيرها كانت عوامل مؤثرة و مطوّرة لعنوان القصيدة العربية في العصر الحديث الذي صارت سمته الرمزية بعد ما كان في بداياته عبر التاريخ العربي مباشرة صوتيا يعجز عن اختزال المتن، وتشبيه القارئ في قراءتها و لسنا ننفي بذلك العناوين المباشرة في القصائد الحديثة.

كما نجد العنوان في الإبداع العربي بين مباشرة و رمزية في مدونات مختلفة من الإبداع العربي، ففي المعاجم يميل العنوان فيها إلى الإحالة و التعيين فهو مباشر في إحالته لمضمون النص ، فهذا "ابن دريد" يعلل تسميته لمعجمه — جمهرة اللغة — قائلا « و إنما أعرناه هذا الاسم لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، و أرجأنا الوحشي المستنكر »³

ومثله صاحب تهذيب اللغة الأزهري يقول « وكان من النصيحة التي ألزمتها توحيا للمثوبة من الله عليها أن أنضح عن لغة العرب و لسانها العربي الذي نزل به الكتاب وجاءت السنن و الآثار، وأن أهذبها بجهد غايه التهذيب و أدل على التصحيف الواقع في كتب المتحاذقين، و المعوّر من التفسير المزال عن وجهه لئلا يغتر به من يجهله، ولا يعتمد منه من لا يعرفه»⁴

أما " الفيروزآبادي " يعلّل " القاموس المحيط " قائلا : « و أسمىته القاموس المحيط لأنه البحر الأعظم، لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري و هو جدير بذلك، غير أنه فاتته نصف اللغة أو أكثر»⁵ من خلال هذه العناوين

1 - محمد عويس : العنوان في الأدب العربي ، ص 282

2 - المرجع نفسه : ص 278

3 - ابن دريد : جمهرة اللغة ، تح : رمزي منير بعلبكي ، دار الملايين - بيروت - ط 1 ، سنة 1987 ، ص 40

4 - أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الأزهري الهروي : تهذيب اللغة ، تح : أحمد عبد الرحمان ، ج 1 ، منشورات دار

الكتب العلمية ، بيروت - لبنان - ط 1 ، 2004 ، ص 21

5 - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ج 1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان - ط 1 ،

2004 المقدمة

نلاحظ أنها تحيل على مقصد الكاتب مباشرة، فلا يحتاج المتلقي لتأويل و لا لتشفير، فلا إيماء و لا مراوغة، فهذا جمهرة لأنه لجمهور الناس، و ذاك تهذيب لأنه تقويم و تصحيح، والآخر محيط لأنه واسع شاسع كثيف المعاني و المباني.

فالعنوان المباشر في المعاجم ضرورة لأنّ العنوان غير المباشر أو الرمزي سيكون مجوفا لا طائل منه، فعالم اللغة يحتاجه - كما قلنا سابقا- ألفاظا تكون مفاتيحا للعلوم. لكن في فنون أخرى نجد العنوان غير المباشر ذا إيجاء و دلالة.

ففي "مقامات الحريري" يرى "رشيد الإدريسي" أن العنوان فيها متعلق بتلازم ذكر الجنس الأدبي الذي يُبدع من خلاله الحريري، و أنها عناوين غير مباشرة لا يكمن للقارئ أن يحيط من خلالها بمحتوى النص من الوهلة الأولى « فإذا تقدّم القارئ نحو العنوان منتظرا منه أن يمدّه بكل دلالاته دون جهد يذكر، فإنّه في هذه الحالة سيجد نفسه أمام إطار أجوف لا فرق بينه و بين عنوان آخر إلا الاسم و الرسم، أما إذا تقدّم نحوه مسائلا إياه شارحا له مدققا في العناصر الموسوعية التي يحيل عليها و تحيل عليه، فإنّه لا محالة سيخرج بنتائج لم يكن ليتوصل إليها لو لم يسلك هذا الطريق الصعب »¹

فبهذه الطريقة يصبح العنوان منفتحا يحيل على دلالات كثيرة في النص، إنه مفتاح تأويلي للنص.

وعليه فالحديث عن أهمية العنوان في الإبداع العربي تبدأ منذ عصر التدوين حيث أصبحت له قيمة حضارية و أصبح وسيلة من وسائل تنظيم المعرفة و ضبطها، وصار لصفحة العنوان أهمية خطيرة، بالنظر إلى ما تحويه من معطيات تساوي النص² لكن يبقى ظهوره متباينا بين شتى الفنون من عنوان مباشر إيحالي لعنوان غير مباشر رمزي.

إذا كان هذا العنوان في هذه النماذج فكيف هو حاله في الجانب السردى الحكائي ؟

IV - العنوان في الرواية العربية:

عرف العنوان في السرد المحكي القديم حتى الرواية تطورا كبيرا، وكان هذا التطور نتيجة التأثير بالمحيط الخارجي من جوانب فكرية، سياسية... الخ

1 - رشيد الإدريسي : سيمياء التأويل " الحريري بين العبارة و الإشارة " شركة النشر والتوزيع ، المدارس ، الدار البيضاء -

المغرب - ط 1 ، 2000 ، ص ص 193 ، 194

2 - محمد التونسي جكيب : إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءته ، عتبة العنوان أنموذجا ، مجلة جامعة الأقصى ، مؤتمر

الآداب ، العدد الأول ، سنة 2000 ، ص 544

وللباحث المغربي "شعيب حليفي" دراسة رائدة في هذا الميدان، حيث رصد الظاهرة ووقف عند أهم خصائصها.

حيث يرى أن العناوين في المحكيات الثرية القديمة تنقسم إلى قسمين:¹

- قسم ركز على الزمن نحو "ألف ليلة و ليلة" وكرونولوجية الحكيم مما يخدم العنوان ظاهريا، و يجعله في العمق، عاكسا لتلك العجائبية المتضمنة
- قسم ركز على الأسماء البطولية "عنتر، سيف ...، بنو هلال، حمزة البهلوان" وهذه الأسماء الدالة على العناوين تعكس روح البطولة الفردية العجائبية شأنها شأن الملاحم الغربية.

تحمل هذه العناوين في طياتها الفكر العربي الأصيل المنزه عن أي تبعية فهي « أنماط روائية تراثية... بمقاسنا العربي الأصيل لا بمفاهيم الرواية الأوروبية الحديثة ... التي أوقعتنا في التقليد و الانبهار و التلقينية و التجريب رغبة في العولمة و الحداثة، وإن كان ذلك على حساب الأصالة و التراث و الذات و الهوية و الفهم الحقيقي للشخصية العربية.»²

ولهذه العناوين التراثية خاصيتان و ميزتان مبررتان:

أ - **طول العنوان:** يرى "شعيب حليفي" أن هناك عنوان رئيسي مهم وظيفته لفت انتباه القارئ و يتكون غالبا من أربع كلمات، و عنوان فرعي وظيفته تفسيرية و ماهية العنوان الطويل تكمن في استفاء المعنى وتقريب الدلالة إلى فهم القارئ³ وهذا مذهب قال به "واسيني الأعرج" حيث يرى أيضا أن العناوين الطويلة تدخل القارئ في مناخ عربي لأنها عادة سردية عربية، وهي ليست غريبة بل هي محاولات لإزالة الغرابة عن النص⁴

ب- **خاصية التسجيع:** عرفت هذه الخاصية نماء و تطورا حيث كان « ولوع كتاب القرن الرابع وما بعده بتسجيع عناوين كتبهم »⁵ وكان لهذه الميزة ميلا للجانب الموسيقي وما يخلقه السجع من نغم يعطي المبنى جمالا و بهاء.

1 - شعيب حليفي : النص الموازي للرواية، استراتيجية العنوان ، مجلة الكرمل ، عدد 46، 1993، ص25

2 - جميل حمداوي : مقارنة العنوان في النص الأدبي ، مجلة الكلمة ، السنة الأولى ، ع 2 ، سنة 2007 ، ص 10

3 - شعيب حليفي : النص الموازي للرواية ، ص 26

4 - كمال الرياحي : مواجهات " حوارات أدبية " ص 18 على الرابط [maktoob blog . com / user files/ k / 7](http://maktoob.blog.com/user/files/k/7)

Kamel Riahi : hiwarat doc.com يوم 2009 / 09 / 15 على الساعة 17:00

5- محمد بلاجي : توظيف العناوين في تأليف المصنفات ، ص 132

بعد هذه المرحلة التي اتسمت بالعروبة و الأصالة جاءت مرحلة الرواية العربية التي مرت بمراحل مختلفة، لعل أحسنها منها هي المرحلة الأولى لأنها امتداد مع التراث القديم ، و الامتداد يعني التواصل و الهوية و التميز لا القطيعة و التبعية، خاصة وأن تراث الحكيم حافل و كثير، وهذا ما استحسنه " جميل حمداوي" و عارض فيه "شعيب حليفي" حيث رأى أن هذه المرحلة « احتذاء و اجترار لقوالب التراث العربي القديم »¹ ولهذه المرحلة خصائص رصدتها " شعيب حليفي" تتمثل في :²

1 (- من النصف الثاني من القرن التاسع عشرة حتى حدود الأربعينيات:

- عناوين تشتمل منها رائحة الرومانسية.
- عناوين تتناص مع الموروث القديم شأن المويلحي في "حديث عيسى بن هشام"
- عناوين تعكس الكتابة الساخرة التي كانت تكتب بها المقامات
- عناوين مسجوعة و بالتالي طويلة نحو "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" ومؤلف "أحمد الشدياق" "الساق على الساق فيما هو الفاريق"
- عناوين يلاحظ فيها الطابع البلاغي من طباق و نحت و تخنيس
- عناوين ذات نفس تراثي لكنّها تعالج قضايا حديثة

2 (- نوع آخر ذو عناوين يطغى عليها الأسماء النسوية تزامنا مع تحرير المرأة و الدعوة لذلك نحو "زينب" ل محمد حسين هيكل و "ثريا" لعيسى عبيد 1922 و "سارة" للعقاد سنة 1938

- عناوين اسمية تمجد الفرد و تعيد له اعتباره و هذا ما يشير إلى بداية الرواية الأوروبية و هذه العناوين تعبر عن الآلام و الانكسارات العربية نحو "ليالي سطيح" لحافظ ابراهيم و "رجب أفندي" لمحمود تيمور.

بعد هاتين المرحلتين جاءت مرحلة ثالثة؛ مرحلة الرواية العربية الجديدة، مرحلة فتح من خلالها الروائي العربي نافذته على الغرب أو على الرواية الفرنسية الجديدة التي من أقطابها "كلود سيمون" و "الآن روب" و "ميشيل بوتور".

1 - جميل حمداوي : مقارنة العنوان في النص الأدبي ، 12

2- شعيب حليفي : النص الموازي للرواية ، ص ص ، 27، 28

وهذه المرحلة استلهمت من التراث العربي أيضا « معارضة و حوارا ، وامتصاصا وإعادة بناءه في أشكال تخيلية تناصية مثلما كان يفعل إميل حبيبي و الطيب صالح وواسيني الأعرج و جمال الغيطاني»¹

وقد عرف العنوان تطورا من حيث بنيته، و هذا ناتج عن التحولات البنيوية في مجال الكتاب فكانت له مجموعة من الخصائص رصدتها "شعيب حليفي"² :

- دقة العنوان
- الاختصار و الوضوح
- ارتباط العنوان بالنص مباشرة
- إعطاء العنوان بعدا إيحائيا بالاعتماد على تقنية الكرافيك و اللون و الحيز
- وجود عناوين محدّدة تميل إلى ما هو بلاغي و عناوين سوريلية تميل نحو ما هو استعاري
- الإثارة و جلب انتباه القارئ عبر عنوانة الفصول و المقاطع النصية
- تذييل العنوان الأساسي بالعناوين الفرعية المشوّقة للقارئ .

وعليه فمن خلال هذه الخصائص نلاحظ الاهتمام بالعنوان كمكون دلالي ، وكمكوّن بصري مرئي وأنّ لكل مكون وظائفه ، ولعل الذي جعل الجانب البصري مفيدا هو اعتماد تقنيات الكرافيك و اللون و الحيز ، فهذه التقنيات تلفت انتباه المتلقي وتغريه و في كثير من الأحيان تستفزّه لذلك كثر اشتغال رجال السينما على هذا الجانب «وهكذا فلم تقتصر الرواية العربية الحديثة في بنيتها العنوانية على الصورة اللغوية ... بل تجاوزتها إلى الصورة البصرية»³ وعلى كل ما من شأنه أن يستقطب المتلقي ، ويستفزه ، ويستهوّه .

و من هذا كلّه نستنتج ما يلي :

● يعتبر العنوان في الثقافة العربية استعمالا ارتبط بالكتابة فانسحب بذلك على شتى النصوص شعرا و نثرا

● بدأ الاهتمام بالعنوان منذ عصر التدوين بتدرّج منهجي واكب تطور الحسّ النقدي حتى بلغ منزلة الرأس من الجسد ، لأنّه ارتبط بتطور مفهوم النص .

1 - جميل حمداوي : مقارنة العنوان في النص الأدبي ، ص 11

2- شعيب حليفي : النص الموازي للرواية ، ص ص ، 28 ، 29

3 - جميل حمداوي : مقارنة العنوان في النص الأدبي ، ص 13

- لمعنى العنوان في المعاجم دلالات تتأخم دلالاته الاصطلاحية لأنّه لفظ مبثوث في عضد اللغة العربية فانزاح بذلك نحو استعمالات اللغويين ، و المناطقه ، و الكتّاب ، و البلاغيين فكان لكل واحد منهم طريقة في توظيفه .
- تباين استعمال العناوين في المدوّنات العربية بين مباشرة نحو المعاجم ، ومجازية نحو مقامات الحريري.
- وظّفت الرواية العربية أنماطا عنوانية مختلفة ترتبط في كثير من الأحيان بمرجعيات خارج نصيّة حيث يوجّهها السياق في شتى تمظهراته .